الأزهر معقل الثورة

لهذه الأسباب غُيب دوره.!

ولهذه الأسباب كان لابد أن يغيب دوره.!

فالمعركة حينما يقودها دين.. لن ينتصر فيها باطل.. والتاريخ يحكي وينذر.!

لقد حاول بعض الخونة لتاريخ وتراث أمتهم المسلمة، من بقايا القوميين والشيوعيين، أن يفتروا على علماء الأزهر عند دخول الحملة الفرنسية واحتلالها لمصر، وصوروا للناس صورة ظالمة كاذبة، وادعوا زورًا أن علماء الأزهر مالؤوا المحتل الفرنسي، ولاذوا بالتقية عند مجيء نابليون إلى مصر، ولم يؤدوا واجبهم الوطني، وأنهم كانوا أداته الطَّيعة في تنفيذ أغراضه.. وزورًا ما قالوا، فالأزهر هو من حمل شعلة المقاومة، وقاد الغضب الجماهيري الذي أرهق جيش نابليون وأغضبه.. حتى كان كل همه حينما قامت عليه ثورة القاهرة، أن يضرب مصدرها وبؤرتها بمدافعة الآثمة.. فانهالت القذائف والنيران على الأزهر وأحيائه المجاورة، ونالت من قداسته وشموخه.. أما هؤلاء المُدلسون بزورهم، فإنهم يصممون على محو التاريخ وتكذيبه، ولو طالوا مسحه من الوجود لفعلوا، ولكنه مسطر محفوظ ينطق بما كان للأزهر الشريف من بطولة سامقة.. وإنني لأتعجب كيف ساقتهم الجرأة والوقاحة لمثل هذا الكذب الصريح دون خشية من أحد؟ أو فزعة من معترض.. إنهم يعرفون أن الأمة تغط في غيبوبة كبيرة، وأن هناك عزلة قوية بين المصريين وزعماتهم الدينية.

إن أبطال المقاومة تجمعوا في دوحته المباركة، وملأوه بالأسلحة والذخيرة، وصعد المؤذنون ينادون للجهاد على المآذن، وطاف العلماء في الشوارع يحرضون الناس على مواجهة المحتلين الغاصبين بالقوة حتى بلغ عددهم خمسة عشر ألفا.. وكانت الشوارع تعج بالثور والمتاريس.. أما الفرنسيون فكانوا على أتم استعدادٍ لقمع الثورة، فنصبوا مدافعهم وعزموا على ضربها بكل عنف وقسوة، ولم يستقر الثائرون في الأزهر.. وإنما خرجوا للقاء العدو والتربص به ومحاصرته، فوصلوا إلى مقر القيادة الفرنسية بالأوزبكية، وتسلقوا بعض المآذن وأرسلوا نيرانهم على الفرنسيين، ودارت مواجهة عنيفة، ولكن الفرنسيين بادلوهم بالنيران واستطاعوا القضاء عليهم، فسقط عدد كبير من الشهداء رجالاً ونساء، واتجه تفكير نابليون إلى ضرب الجامع معقل الثورة وبؤرتها المتوهجة، فحول كتائبه وواصل ضربه المدوي للأزهر وأحيائه من الظهر إلى الليل.. حتى اتسع ميدان التحطيم ليشمل مناطق الغورية والفحامين وباب زويلة والكحكيين.! كان يريد أن يهدم كل ما يتصل بالأزهر، حتى ينتقم ويشفي صدره من هذا الصرح الذي عبأ له كل هؤلاء المقاومين.

وينقل الرافعي ما دونه مؤرخ الحملة الفرنسية (ريبو) عن هذه المعركة بقوله: "أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب، فتدفن تحت أنقاضه كثير من الجماهير المحتشدة به، وأصبح الحي المجاور من الأزهر صورة من الخراب والتدمير، فلم تجد إلا بيوتًا مدمرة ودورًا محترقة، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين، وكان يُسمع لهم أنين موجع وصيحات مرعبة " وبعد عملية التدمير الشامل التي نفذها المجرم نابليون، اتجه لدخول الأزهر بجنوده الآثمين، وعواطفهم تمتلي حقدًا بعد أن قتلوا كل من فيه من المقاومين.. دخلوه بخيولهم وربطوها في قبلته، ودهموا أروقته وخزانات

الكتب، ومصابيح السقوف وقناديل الإضاءة، ونهبوا ما وجدوه ذا نفع من الأواني والقصاع والودائع والمدخرات، ونثروا الكتب على الأرض وأحرقوها بالنيران، وداسوا المصاحف بنعالهم وتبولوا فيه، وأعدم نابليون عددًا كبيرًا من العلماء والزعماء الذين قبض عليهم بعد تغلبه على الثورة..

وفي عهد (كليبر) كان القمع على أشده أكثر مما كان على عهد نابليون، حتى شاءت الأقدار أن تكون نهايته على يد البطل الأزهري (سليمان الحلبي)، وساعده على تنفيذ مهمته أربعة من طلاب الأزهر، أُعدموا بقطع رؤوسهم وإحراق جثثهم، ووضعت رؤوسهم على عصي غليظة، طافوا بها في الأسواق (واتجهت الريبة إلى كل أزهري، فكان الشيخ لا يأمن على نفسه أن تتخطفه الجنود دون ذنب سوى أنه أزهري.!) لقد كان الجميع على مستوى البطولة، حتى الشيوخ الذين لديهم علة تمنعهم من حق الجهاد، كانوا يجاهدون ويقومون بدورهم أروع قيام.. ومنهم الشيخ الضرير (سليمان الجوسقي) شيخ زاوية العميان، والذي كان يُلقي دروس الوطنية، ويحث الناس على مقاومة المحتلين، ويذكرهم بفدائية السلف الصالح، ويُلهب عزائمهم ويوقظ حماسهم.. إلى أن قُبض عليه بتهمة التحريض على قتل أبناء فرنسا، ومعه عدد من الشيوخ الأبطال وهم: (أحمد الشرقاوي –عبد الوهاب الشبراوي – يوسف المصيلحي -اسماعيل الشبراوي) حبسوهم وعروهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلى القلعة ثم سجنوهم إلى الصباح، ورفضوا شفاعة العلماء فيهم.. ثم أنزلوهم وقتلوهم بالبنادق، وألقوهم من السور خلف القلعة، ولم تعرف لهم قبور، هكذا يذكر الجبرتي في تاريخه.!

وبينما نتذكر هذا المجد وهذا الفخار.. يأتي شيوعي وغد دنيء فيشيع عنهم هذا الافتراء، ويلطخ هذه الصفحات الناصعة من تاريخ الأزهر وعلمائه، وتاريخ الحركة الوطنية وزعمائها الكبار.. كل هذا لا لشيء، إلا لأن القيادة

الثورية المقاومة في تلك الحقبة، كانت قيادة دينية، وكان الأزهر هو مصدر الثورة، ومركز إشعاعها، وكان رجاله هم قادتها ومحركيها.. وهو الشيء الذي يُغضب الشيوعيين الكارهين لكلمة الدين.. فلتذهب المقاومة للجحيم وليذهب دم الشهداء رخيصًا لا قيمة له، وليذهب التاريخ للهاوية.. حتى لا تقوم للدين قائمة..

لقد قدم الأزهر في مواجهة الحملة الباغية، علماء شوامخ ضربوا أعظم المثل في التضحية والفداء والجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة.. ويظهر لنا كيف كان الأزهر مهد الجهاد، كما كان مهد العلم، ومهد القيادة السياسية، كما كان مهد الوعظ؟ ولما سطر التاريخ بلاءه وصلابته في وجه الظلم، كان لابد من تخطيط الحاقدين لتنحيته من قيادة الأمة، و إفساده و إفساد علمائه بكل الحيل والوسائل.!

واستمع لهذه القصة المفتراه، والتي حاولوا من خلالها إثبات أن نابليون شامخ عظيم جاء لينير القاهرة.. بينما وجد في طريقه عقبة تمثلت في هؤلاء الجهال من علماء الأزهر، الذي حرضوا الناس على إطفاء المصابيح التي أمر بها نابليون لتنير القاهرة.. إن كاتبها يروى أن علماء الأزهر قابلوا الغزو الفرنسي لمصر بصوت محبوس، وهمة مشلولة، وأنهم ما تحركوا محتجين، إلا عندما أنار الفرنسيون القاهرة، لأن إبقاء المصابيح كفر، وإشاعة الظلام بالليل هو ما يعمل له علماء الدين الرمم.. وهكذا يقف الإسلام، وكل من ينتمي إليه مع الظلام وضد النور، ويالها من فرية لا يكيدها لديننا أشد الأعداء، لكنها أتت من أهله المتنصلين منه.. وحينما نستدعي شاهد الجبرتي، يخبرنا أن القصة برمتها كانت حيلة من نابليون، ليحكم قبضته على القاهرة التي تموج بالثورة، وتكسح له المصابيح هذا الظلام، الذي يتخفى وراءه القناصة والفدائيون..

وحينما نقرأ كلام صلاح جاهين، وهو يجسد هذه الواقعة بشعره أو بهزله، نرى حقدًا رهيبًا بيته الرجل في نفسه للإسلام ورجاله.. يقول:

زحف الفرنسيس وزحف قبلهم جواسيس.
غايصين لقاعها وعارفين باعها من باريس.
و ايش عمل القاع قصير الباع، فى القمة.
و ايش تعمل العمة فى البرنيطة يا أئمة.
العمة ما اتكلمت، وتن صوتها حبيس.
غير مرة لما البوليس قال: نوروا الفوانيس.
وده كفر طبعًا.. ولا يدخل لنا في ذمة.
اطمن الغرب إن في بلدنا ناس رمة.
وانهش يادين فينا و اقضي بمنتهى الهمة.
على اسم مصر

ثم يقول:

و أنا لو «نابليون» لكنت عدمتهم تقتيل
ما دمت أقدر أسيح دمهم في النيل
وأخلع ذقونهم و أبين أنها تضليل
على اسم مصر..

يقول الأستاذ (محمد جلال كشك) في كتابه القيم (ودخلت الخيل الازهر): "كان الأزهر رمز سيادة الأمة ومركز قيادتها، لقد قاد المقاومة على جميع المستويات، من المقاومة السلبية التي قادها الشيوخ الكبار داخل مجالس نابليون وداخل التشكيلات الإدارية التي أقامها لحكم البلاد إلى المقاومة الوطنية، التي قادها الشيوخ الصغار بتنظيم حركات سرية.. إن المقاومة العنيفة التي لقيها الفرنسيون على يد الأزهر، هي التي بصرت المستعمرون من

بعدهم لضرورة القضاء عليه، والحد من قوته وثورته، ودوره القيادي الذي يمنع أي استعمار أن يستقر في وادي النيل.! كان الأزهر هو القيادة الشرعية للأمه، والسنوات الثلاث التي قضاها نابليون في مصر، إنما كانت كلها حروب مع الأزهر ومقاومة لا تهدأ أبدًا، وعن طريق محمد علي وأسرته، تم تهميش هذه القيادة والقضاء عليها، وإحداث عملية تغريب للقطر المصري كله، خدمة للاستعمار وتسهيلاً لأمره في احتلالها والتهامها."[1]

كما كان للأزهر دوره المشهود والقوي في مواجهة الاحتلال البريطاني، فحينما جاءت حملة فريز عام ١٨٠٧م، وسيطروا على الإسكندرية، وأرادوا دخول رشيد والاستيلاء عليها بألفي مقاتل من جملة ٦٠٠٠ مقاتل، استدرجهم الأهالي إلى وسط المدينة وانقضوا عليهم وقتلوا قائدهم، و١٧٠ جنديًا ممن كانوا معه، وأسروا ١٢٠ وأرسلوهم إلى القاهرة مكبلين، وفي هذا التوقيت كان محمد علي مشغولاً بمطاردة المماليك في الصعيد، فكان لابد للأزهر وقتها أن يقوم بدوره المنوط به، في الحفاظ على الأمة وتوجيه الشعب، فعقد اجتماعًا برئاسة شيخ الأزهر عبدالله الشرقاوي ونقيب الأشراف العالم الأزهري السيد عمر مكرم لمواجهة العداون، وكتب أهالي دمنهور للسيد عمر مكرم وطلبوا منه المعونة بالسلاح حتى يدافعوا عن أنفسهم بعد هروب حاكمهم أمين أغا.. ولم ينتظر عمر مكرم حتى عودة محمد علي الذي أبطأ في القدوم، فقاد المقاومة الشعبية وأعاد تنظيمها، وطلب من أهالي القاهرة حمل السلاح والتأهب لقتال الإنجليز والدفاع عن مصر، وأمر بوقف الدراسة في الأزهر حتى يتفرغ المدرسون والطلبة للجهاد وحماية الوطن.

---

١ - ودخلت الخيل الأزهر. محمد جلال كشك

كما عقدوا اجتماعًا آخر وحدوا فيه الصفوف، وأمروا بحفر خندق، وبناء سور شمال القاهرة، ليعيق وصول المحتل إلى قلبها، وذهبت جموع من العلماء إلى بولاق، ومعهم جموع من الأهالي للمساعدة في حفر الخندق وإصلاح الأسوار و إقامة المتاريس، وكان عمر مكرم ي يظل معهم طول النهار يحثهم ويبث فيهم روح الجهاد والنضال، وقام علماء الأزهر بإمداد حاكم رشيد بالرجال والسلاح، وكتبوا رسائل لعربان البحيرة يدعونهم فيها للجهاد والانضمام لإخوانهم في رشيد.. وأراد المحتل وقتها أن يوجه ضربة انتقامية من أهالي رشيد بالمدفعية الثقيلة، واحتلوا قرية الحماد حتى يحاصروا المدينة، وشرعوا في إطلاق مدافعهم وضرب رشيد، واستغاثت المدينة بالسيد عمر مكرم، فعقد اجتماعًا بالأزهر، طالب فيه العلماء بالمسارعة في نجدة رشيد، وألقى خطابًا كان له تأثيرًا قويًا على الناس، حثهم فيه لنصرة إخوانهم في رشيد، ولما عاد محمد علي، طلب من السيد عمر مكرم أن يجمع له المال لتغطية نفقات الجنود الذاهبين لقتال الإنجليز، واستمرت الحرب قرابة أسبوعين انتهت بهزيمة الإنجليز وقتل وأسر عدد كبير منهم.

وكان للأزهريين جهود ملموسة في موقعة التل الكبير ونصرة عرابي، حيث ذهب علماءه مجموعات تلو أخرى؛ إلى ميادين القتال برئاسة الشيخ حسن العدوي، وكان طلبة الأزهر يجوبون الشوارع يوزعون المنشورات، التي تحث على الجهاد في سبيل الله، وامتلأت المساجد بهم يتضرعون إلى الله تعالى لنصرة عرابي وجيشه، وكان لخطبهم الدينية أثرها الكبير في تعبئة الجماهير، والتطوع للقتال والتبرع بالمال، وتقديم كل ما يستطيعون للمجهود الحربي.

كما كان لهم موقفهم العنيف من الخديوي (توفيق)، الذي اتهموه بالخيانة الوطنية ومماألأة الإنجليز.. وبعد هزيمة عرابي تمكن منهم الخديوي،

وعاقبهم وقدمهم للمحاكمة ونفى أكثرهم خارج البلاد وعلى رأسهم الإمام محمد عبده، حتى أنه أصدر أمره بإعفاء شيخ الأزهر الأنباني من منصبه.

وبعد عشر سنوات قامت مظاهرة عاصفة في ٢٧ يناير ١٩٠٩م تقدمها طلاب الأزهر وتوجهت إلى قصر عابدين، واصطدمت بالبوليس، وتبودلت القذائف، وكانت أحداثًا رهيبة.